

شمالي افريقيا : من لن أورتزن

روايته الاخيرة « الميراث » عناصر السخرية والتهمك والرأفة التي يتسم بها نتاجه . كما يتجلى فيها مزيج من النعمة والوداعة ومن العبارات النارية والافوال البسيطة الحكيمة . ان الشريبي ناثر في جميع كتاباته ، غير انه في « الميراث » يبدو كأنه قد اخذ يتفاهم اخيراً مع نفسه . ولقد نجح الآن للمرة الاولى في كتابة رواية (هي روايته الخامسة) لا تقف فيها آراؤه واعتقاداته الشخصية حجر عثرة في سبيل القصة . ان هذه الاراء والمعتقدات ما تزال موجودة في روايته الجديدة ، لكنها منسجمة مع الفصوة وتعمل على تقويتها .

كتب الشريبي روايته بصيغة المتكلم ، وراوي القصة وبطلها عربي مغربي يسكن في فرنسا منذ ١٦ سنة وقد ثار على ابيه وطريقة حياته فسافر للخارج ليستوعب الحضارة الغربية . ونجد البطل هذا ، المسمى ادريس فردي (وقد يكون ادريس الشريبي ذاته طبعاً) في مطلع الرواية متزوجاً من امرأة فرنسية واباً لطفلين . وهو سعيد في زواجه لكنه يعاني تمزقاً داخلياً لانه لم ينجح في تكييف نفسه والتأقلم مع الحضارة الجديدة .

وتصله برقية من الدار البيضاء تشعره بوفاة ابيه الذي لم يكن قد رآه او كتب له رسالة خلال سني اقامته بعيداً عنه . فيأخذ اول طائفة الى بلده ويصلها عند موعد الدفن . ويكون على وشك قرع باب بيته عندما يسلمه صبي برقية باسمه . واذا بالبرقية من والده ونصها : مرحباً بك في منزلك . ويفتح له الباب احد اخوته ، نجيب ، ويقوده الى حيث اجتمعت العائلة للدفن . ويقول نجيب الضخم الجثة بصوت مرتفع : « ها هوذا . سمعت قرعة على الباب ففتحته واذا بالفارع ادريس . لا تستطيع ان تتكبن بتصرفاته . ذات يوم هجرنا وسافر . بعيداً عن ابيه وعن امه وعن

قامت في بلدان كثيرة في الشرقين الادنى والاوسط ، كالجزاير وتونس والجمهورية العربية المتحدة ولبنان وايران ، مدارس للادب الفرنسي . لكن لم يحدث الا في بلدان شمالي افريقيا ان ابدى الكتاب اهتماماً وثيقاً بحياة الشعب . ذلك لان اللغة الفرنسية في هذه الاقطار تكاد تكون لغة الكلام والاتصال بين الكتاب والقارئ ، وحين يفكر كاتب عربي ناشئ من شمالي افريقيا في البدء بوضع كتاب فانه يفكر حالاً باستعمال اللغة الفرنسية كوسيلة للاداء والتعبير . ومع هذا فان كتب هؤلاء المؤلفين تظل في صلبها نتاج العالم العربي . ولا يربط بينها وبين الرواية الفرنسية كياناً لها ، سواء من حيث الشكل او من حيث المضمون ، الا شيء يسير .

وفي الاشر القليلة الماضية نشر ثلاثة من المؤلفين العرب الذين يكتبون بالفرنسية في شمالي افريقيا ، والذين قد وطدوا مقامهم كادباء وألفوا عدداً من الكتب ، نشر كل منهم رواية جديدة نعا فيها منحى جديداً في الاسلوب وزادت في اهمية نتاجه .

ابرز هؤلاء الثلاثة (بل ابرز جميع المؤلفين العرب الذين يكتبون بالفرنسية في شمالي افريقيا) هو بلا شك ادريس الشريبي . وهو مغربي في اواخر الثلاثينات من عمره ، تلقى دراسة عربية تقليدية في جامعة القبروان كما درس في معهد فرنسي في الدار البيضاء . وفي ١٩٥٣ ذهب الى باريس ليتخصص في الكيمياء ، لكنه سرعان ما هجر موضوعه هذا وكرس نفسه للكتابة . وهو يعيش في فرنسا منذ ١٠ سنوات وله زوجة فرنسية . قليل هم الكتاب في اوربا ، من اية جنسية واية سلالة ، الذين لكتبهم ما لكتب ادريس الشريبي من اسلوب في بآثر . وتتجلى بوضوح في

« واخذ كامل بضحك ، وقال : ما اخف ظل ابينا ! اتدخن سيجارة ؟ وضع يده في جيبه المفلوط ، لانه عندما اخرجها كانت فيها ساعته » !

ان رواية الشريبي هذه مثل من الامثال ، على الطريقة الشرقية ، وتجمع بين الحاضر والماضي ، وتضم تعليقات على بلاد المؤلف التي تواجهها مشاكل التحرر : ما الذي ورثه الجيل الحديث الجديد عن الجيل القديم التقليدي ؟ وهذا ينطبق لا على المغرب فحسب بل على جميع البلدان الحديثة العهد بالاستقلال . ما الذي تركه الغرب لها ؟ ان ادريس الشريبي كاتب عربي تمتد رؤياه الى ما هو ابعد من بلده هو .

يقول : « لقد مات ابي وها انا الآن مستقل . لكن ما زال يخيم الجهل والتقاليد المتأصلة والشقاء وكل المخلفات التي تمنع الانسان من ان يكون حراً . لقد جاهدت زمنا طويلا وفكرت في مشاكل الشرق والغرب . لكن أما زال هناك حقاً شرق وغرب ؟ »

ويظن ادريس ان المزج ممكن بطريقة من الطرق ، فيعود الى اوربا . وفي المطار يتسلم تذكرته ، وكان ابوه قد تركها له قبل وفاته بشهرين ، ويجد معها في الظرف رسالة هذا نصها : « احفر بئرا يا ادريس وانزل فيه لتفتش عن الماء . ان الضوء ليس على السطح بل في الاعماق . في اي مكان وجدت نفسك ، حتى في وسط الصحراء ، ستجد ماء على الدوام . ما عليك الا ان تحفر ، وتحفر ، يا ادريس » .

ورواية « الميراث » قصيرة ، كمعظم روايات الشريبي ، لكن فيها من العمق اكثر مما في رواية تفوقها في الطول مراراً ، وتعبّر عن اكثر مما تعبّر عنه مثل هذه الرواية الاطول .

اما الكاتبان الآخران فهما آسيا جبار ومحمد ديب ، وكلاهما من الجزائر . ويختلف اسلوبهما عن اسلوب الشريبي : فيبدو محمد ديب ان قارئه

اخوته . ولم يكن يعرف حتى ان يسوق سبارة . وعندما خبل الينا انه قد مات ، اذا به يفاجئنا وهو نحيل كذبل بقرة ويحمل - قبية صغيرة تكاد لا تتسع لوجبة من طعامي . اتمرفون ما قال لي ؟ قال : أنت نجيب فردي ؟ انا عامل البريد . واحل برقية لك » . « وقالت امي هامة : اصحيح هذا ؟ احقاً هذا انت يا ادريس ؟ ولم اعرف بماذا احيب . وقبلت يديها وجبينها وشعرها » .

ويأخذون ادريس الى الغرفة حيث كانت ابوه يمدأ . كان رجل آخر هناك ، وقد نشر فوقه غطاء . « وازحت الغطاء عنه ، ونظر الرجل اليّ وقتاً طويلا بصمت . وكانت عيناه حراوين . وقلت : اخي ، مديني . فاشار الي بان اسكت ، وهمس في اذني : تقدم واغمض عينيه . لقد كانت هذه رغبته الاخيرة » .

ويبدأ ادريس يفكر : اهذه فعلا عودة الابن الضال ؟ ثم تقرأ وصية ابيه (وهذا المشهد رائع وهو المشهد الرئيسي في الكتاب) فيجد ان اباه قد حرّمه من ميراثه . بل ان اسمه لم يذكر في الوصية مطلقاً . اما بقية اخوته فينال كل منهم ما يناسبه : فمديني يصبح رأس العائلة الجديدة مع انه ليس اكبر الاخوة ، وتقول الوصية (وكانت مسجلة على شريط) في تبرير ذلك : « لانك لست رجلاً عاطفياً تماماً وفي الوقت ذاته لست واقعياً تماماً ، وبهذا فانك تجسد الفترة الانتقالية » . اما نجيب ، الضخم الجثة والضعيف العقل ، فقد ترك ابوه له معاشاً شهرياً وعينه مراقباً للعمال . وازاد الصوت على الشريط : « لحسن الحظ انك لست حاكماً للبلاد » ! ثم يأتي دور كامل وهو الابن الذي جاء للآثم انما ليحظى بميراثه . قال له الصوت : « ان طبيعتك لا تعرف السعادة بدون المال : لك شك قدره ٧٤ مليون . لا تنس ان البنك يقفل الساعة الرابعة . ان اسرعت الان امكنك ان تصله قبل ان يقفل وقبل ان تأخذ القطار عائداً الى بلدتك » !

نشرت هذه المؤلفة الجزائرية الشابة روايتها الاولى وهي في عامها الحادي والعشرين ، ولم تبلغ الان السابعة والعشرين بعد . تلقت دراستها في الجزائر ثم سافرت الى باريس لتدرس التاريخ وتحصل على شهادة ، وعادت بعدها الى ثمالى افريقيا حيث مارحت لثلاث سنوات تعلم التاريخ اولا في تونس والان في جامعة الرباط . وفي حين ان كلا من روايتها الاولى دارت حول شخص رئيسي واحد كان امرأة وعالجتها بصورة شخصية ، فان المؤلفة تجعل كتابها الجديد يدور على نطاق اوسع بكثير وتصور فيه صورة موضوعية لعدد وافر من النساء العربيات . كما انها تحاول فيه شكلا جديدا وتجارب جديدة من حيث الاسلوب ، فالحوادث تنتقل باستمرار اماما وخلفا من حيث الزمان وتكاد تتخذ شكلا دائريا ، كجمل يدور ويدور حول بشر ويظل يمر بالنقطة ذاتها . وقد نجحت في تجربتها هذه ، وربطت الرواية معا عن طريق الاشخاص ، الذين كانوا كحلقات في سلسلة .

تجري حوادث هذه الرواية ، كحوادث رواية محمد ديب ، في بلدة جزائرية لم تسمها ، لكن في تاريخ سابق لروايته وفي مرحلة اقدم من مراحل الثورة القومية . وتحاول آسيا جبار ، كما حاول محمد ديب ، ان ترسم صورة شاملة للحياة في هذه البلدة ، الا انها عنايتها الكبرى موجهة الى رسم ما كان لهذه الحياة من تأثير على النساء فيها . فالرجال يذهبون للالتحاق بقوى التحرير ، اما زوجاتهم فيبقين في البيوت ولا كلمة لهن في الامر : « قالت ليلى لصديقة لها : تركته يذهب بدون ان اتفوه بكلمة احتجاج . في الساعة العاشرة ذات صباح اخبرني انه سيتركني عند الظهيرة . ساعتين ! تركته يتكلم ثم انفجرت صارخة : وماذا سيحدث لي ؟ انه لم يسألني قط لصراختي هذه . قال : كيف تجرؤين على ان تفكري بنفسك ، بنفسك فقط ، والعالم من حولك في غليان ؟ آه ، خطبة عسكرية حقيقية - لي انا ، لزوجتي ! ولم اجبه . وسماني اسماء غتلفة : اناية ، لا مبالية ، من الطب

به كاتباً خافت الصوت يهتم بمجشد اكبر عدد ممكن من التفاصيل في كتابه . ونجري حوادث روايته الاخيرة « من يذكر البحر » في مدينة تشبه كثيراً مدينة تلمسان حيث ولد المؤلف وصرف معظم سني حياته الاربعين او يزيد قليلا وكانت مركزاً هاماً في الانتفاضة الجزائرية القومية . كانت روايات محمد ديب السابقة تتسم بالواقعية وتدور معظم حوادثها حول اختبارات الشخصية الخاصة وتصف ما عاناه هو من مصاعب ومشاق ، وكان يكتبها بأسلوب شعري فضفاض لكنه قلما يني فيها بالقصة او بتطور الاحداث . وفي المدة الاخيرة ترك بلاده واستوطن فرنسا ونشر ديواناً من الشعر ينم عن شاعرية خفية ، وتدل روايته الاخيرة على انه قد اصبح مؤلفاً من طراز اول . وقد عدل فيها في طريقتها واسلوبه تعديلاً عميقاً .

وقد حاول محمد ديب فيها ان يعطي صورة انطباعية شاملة عن الحياة التي كان يحياها السكان الماديون من عرب الجزائر في فترة الجهاد ، وما كان فيهم من مخاوف وفلق ومن صبر وايمان بالقدر . ويقول في ختام كتابه انه قصد ان يترك في ذهن القارئ صورة لكابوس طويل الامد ، ولهذا فان شكل الرواية الواقعية لم يكن ليناسب وصف مثل هذا الموضوع ، فاستخدم شكلاً آخر هو شبه بالقصص القائمة على الخوارق العلمية ، واعتمد كثيراً فيه على الرمز . مثال ذلك ان البحر في عنوانات الكتاب هو بحر المتاعب والمآسي الذي يحيط بسكان المدينة العرب .

تشبه حوادث الكتاب الحلم ، والانطباع الشامل الذي يخرج به القارئ هو صورة كابوس . لكن قوة الكتاب هي في الوقت ذاته نقص فيه كرواية : فهو كتاب ذهني لحمد كبير ، ويعجز عن اثارة اهتمامنا بالاشخاص فيه : فهم ايضا رموز .

اما رواية آسيا جبار الاخيرة « ابناء العالم الجديد » فتدل هي ايضا على حدوث تبدل كبير في الاسلوب والطريقة منذ روايتها السابقتين .

يروي المؤلف قصته الفاجعة بمبارات قوية ، لكنه يلف منها بروح دعابة وسخرية ويورد فيها عدداً من المشاهد الممتعة المسلية . يأتي البلدة شخص غريب اسمه شهيد ويفتح مقهى ، وعندما يلبس احسن ثيابه وينطلق الى مكان ما يأخذ اهل البلدة يتراهمون عن المكان الذي يقصده . ويختارون رجلين متزوجين وقورين ليفتقيا اثره . فيتبعانه ويشاهدانه يدخل مقبرة :

« قال احدهما للآخر : لقد كسبت الرهان . قال الآخر : لا انكر ذلك . لكني لم ادخل هذا المكان في حياتي . يقولون انه مليء بالتسلية . واظهر رفيقه امتعاضه : لو انه دخل دار بقاء لكان علينا ان نتبعه اليه . فكر قليلا في سمعنا . قد برانا احد ما ، وقد يعرفنا . اني رجل متزوج ولي اربعة اولاد . قال الآخر : الا ترى انها فرصة لنا عز مثلها . فلا حاجة لان ننسل الى داخل البناية من الباب الخلفي ، كما نفعل عندما نذهب الى بيت عائشة . فنحن هذه المرة قادمين بمهمة ، هي ان نخبر الجماعة عن المكاتب الذي ذهب اليه شهيد ، كي يعرفوا من الذي كسب الرهان . باستطاعتنا ان نتبعه الى اي مكان ، الى اي بيت ، مهما كان صيته سيئاً ، بدون ان يلومنا انسان » .

وتتجلى سخرية المؤلف بشكل اشد مرارة حينما يتعرض لموضوعه الرئيسي : « ويوقف مخبر للاذاعة يعمل مايكرو فونا احد المارة ويسأله : اتفكر بالعربية ام بالفرنسية ؟ فانك اذا تكلمت ممزقاً بين تفكيرين على هذا الشكل ، الا تشعر بغنى وخصب نتيجة له ؟ »

وفي مشهد آخر يلج ضابط بوليس فرنسي على عمر بان يطمعه على ارفاق شهيد السياسيين : « لن اقول لك ، حتى ولو كنت اعرف . لقد علمني شهيد ان اكون فخوراً بجنسي ، ما دامت المسألة التي تعنيك هي مسألة الجنس والسلالة . عدا ذلك فانك لم تعترف بي قط كمساو لك . لكني اذ انظر اليك اقول لنفسني اني على الاقل اضاھيك .

الوسطى ، محافظة ... واعطى اوامره : عليّ ان اذهب الى البلدة الفلانية ، ان اذهب الى اختي (ولكني لم ادخل عتبة بابها) ، وان اعلم في المدرسة . كان مستعجلاً جداً للركي ، وسيرتاح ضميره عندما يودعني في مكان ما ! »
لبي هذه ليست بالزوجة العربية التقليدية ، مثل النساء الاخريات في الكتاب : فهي متعلمة ، وهي قادرة على تحصيل معيشتها . ويبدو ان المؤلفة رسمت هذه الصورة كنقد وتوبيخ للزوجات العربيات المستلمات ، وصورت ازواجهن كرجال في منتهى الانانية . ان كتب آسيا جبار جميعها تعبر عن الثورة على نوع الحياة التي تحياها اغلبية مواطناتها وما فيها من قيود ومن انغلاق . وتبدو في كتابها الجديد هذا ناقمة جداً على النساء لقبولهن وضع حياتهن القائم وناقمة ايضاً على الرجال لعدم قضائهم على هذا الوضع . وتقول ان للمرأة في « العالم الجديد » ، الذي يبدو في ١٩٥٦ انه آخذ في الاشراق ، آمالاً كبيرة .

بينما كان هؤلاء الكتاب الشبان الثلاثة يطورون مواهبهم ، نشر كاتب عربي يصغرهم سناً اول مؤلفاته . هذا الكاتب هو مراد بوربون ، وهو جزائري في الرابعة والعشرين من عمره ويحضر الان للدكتوراه في العلوم السياسية في باريس . اسم روايته « تل الرتم » ، وفيها وعود بعباء كبير . تجري حوادثها في بلدة في الجزائر في ١٩٥٤ ، وتصور بوجه خاص الحياة المضطربة في الاحياء العربية وما كان يشعر به العرب من نقمة وعدم رضى . ومراد بوربون معني كالكاتب الاخرين عناية كبرى بالفترة المضطربة من تاريخ وطنه وبمشاكل ابناء بلده في الوقت الحاضر . وهو معني ايضاً بمشاكل الشباب العرب الذين تتفقوا ثقافة فرنسية - ويمثلهم في هذه الرواية بطلها عمر ، الذي يحارب عمه في صفوف الفرنسيين لكنه يلتحق هو بصوف المجاهدين القوميين في الجبال . وهناك شخصيات عربية اخرى تأخذ موقفاً وسطاً بينها .

وترا لاذعا يقربه من اسلوب ادريس الشريبي لكن دون ان يكون فيه ما في الشريبي من رافة وتفهم ناضج . ومع هذا فان روايته تحررت من التقليد الادبي للروايات العربية او الفرنسية اكثر مما تحررت منه الروايات السابقة للمؤلفين العرب في شمالي افريقيا ، ولعله من الممكن ان نسميها اول رواية جزائرية حقيقية . وعلى كل حال فانت المؤلفين العرب في شمالي افريقيا قد اخذوا يسهمون في الادب الغربي اسهاما مميذا .

ان الحقيقة الجوهرية هي اننا مختلفان . انا اتكلم لغتك ، لكنك لا تعرف لغتي . انكم واضحون ومعدودو المعالم وليست فيكم اية اسرار غامضة علينا . اما نحن فكتاب مخلق عليكم باحكام . والاسلوب الذي يعتمد مراد بوربون اسلوب مباشر تنقصه البراعة ، وبعض اجزاء روايته افضل منها ككل . لكن لها مزايا الشباب : البساطة والاخلاص والحماس . وقد استخدم شكلا صعبا لبناء روايته الاولى ، شكلا دائريا يشبه لحد كبير ما استعملته آسيبا جبار ونجحت فيه اكثر منه . كما ان في اسلوبه

امريكا : من روبي مكولي

بنقمة على « ملحق الكتب » . في تنقلاتي خارج امريكا كثيرا ما كان يسألني الادباء والمتأدبون ذات السؤال : هل توجد في الولايات المتحدة مجلة جيدة للتعليق على الكتب ، مجلة تشبه « الملحق الادبي للتايمز » اللندنية ؟ اما جوابي فكان ، بالطبع ، لا . ومعظم القراء يرون ان « ملحق الكتب » هو المجلة الوحيدة التي عذنا والتي تشبه تلك المجلة اللندنية شها بعيدا - وكما يقول ماكدونلد « وأسفاه » .

ما الذي يعرض « ملحق الكتب » لهذه الهجومات ؟ لاقول اولاً ان مصدر هذه الهجومات هو طبقة المفكرين الواعين في الادب الامريكي ، من الكتاب والناقد الذين يحكمون على الاشياء بمقاييس صارمة لا تلقى دائما قبولا لدى القارئ العادي ، وهي مقاييس تتبعا المجلات الادبية الراقية مثل « بارتون » و « سيواني » و « كنيون » . اما « ملحق الكتب » للنبيويورك تايمز ، من الوجهة الاخرى ، فقراءه جمهور واسع جدا يقوم في معظمه على من يقرأون الكتب من حين لحين فقط وبصورة عابرة ولاسباب غير ادبية (كثير من

ليس في امريكا مجلة ادبية او طمد مقاما واكثر شهرة من المجلة الاسبوعية « ملحق الكتب » للنبيويورك تايمز . وقد تعرضت هذه المجلة في الاشر الاخيرة لهجوم عنيف ، استهل في مجلة ادبية فصلية تحدث فيها عدد من الناشرين والمحرفين والمؤلفين والناقد عن « ملحق الكتب » هذا ، وتميزت احاديثهم عنه بالاحتقار والسخرية والاسف . لكن هذا الهجوم المشترك كان بسيطا بالنسبة للهجوم اللاحق الذي سدده له الناقد دوايت ماكدونلد . فقد كتب مقالتين طويلتين في مجلة « اسكواير » بعنوان « النبيويورك تايمز ، وأسفاه » (وفي هذا العنوان اشارة الى اقتباس من بول فاليري الذي سئل مرة من في رأيه اعظم شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر فاجاب « فكتور هيفو ، وأسفاه » . وامله لم يحدث قط في تاريخ الصحافة الامريكية ان تعرضت مجلة ما - وبصورة خاصة مجلة لها من الوقار مسا « ملحق الكتب » - لمثل هذا الاحتقار المدمر والبارع . ولم تكن هذه اول مرة يشعر فيها المفكرون